الكتابة العربية وأدواتها ومجالات استخدامها في العصر الجاهلي

الدكتور نوري حمودي علي القيسي
استاذ في قسم اللغة العربية/كلية الآداب
جامعة بغداد

لم يَعُد الحديث عن الصراع الواسع الذي كان يأخذ باطراف الجزيرة وأواسطها أمراً يحتاج الى تأكيد ، أو مسألة تفتقد الى البرهان أو الدليل ، فقد ظلت بلاد العرب مسرحاً تتنازعها القوى المختلفة ومجالا تتواجه فيه المصالح وتحتدم في زواياه أوجه الصراع ، ولم تكن الأمة بعيدة عن هذه الصورة ، ولم تكن أقدارها غير محددة الابعاد في أعراف أبنائها ، فهم قد أدركوا الواقع الذي تمر به الجزيرة وعرفوا المسالك التي كانت تتسرب منها مناطق النفوذ ، والاساليب المستخدمة في الاستحواذ والتسلط . ومن هنا كانت وقفاتهم تتجلى بأشكال متباينة ، ودفاعهم يتمثل في صور مختلفة ، ولكنها كانت تلتقي في بؤر الدفاع عن الارض وتتحدد في مسار الحرص على التراب والمصير المشترك .

ان أوجه الصراع هذه لم تقف عند حدود التسلط والاستحواذ ولم تقف عند حدود الاستيطان والسيطرة السياسية وانما كانت تمتد الى الجانب الثقافي الذي يحاول استعباد الفكر ، وامتلاك أداته المتمثلة في الكتابة ، وما يصاحبها من تعليم أو تعلم ، وما يتفرع عنها من ثقافات وحضارة ووسائل حياة والمعروف أن العرب أمة عريقة ، يمتد تاريخها الى أعماق بعيدة ، وان النقوش والآثار والمعالم التي عثر عليها تؤكد وجودهم وان الهجرات العربية التي انطلقت من

الجزيرة الى وادي الرافدين كانت سبباً من أسباب ازدهار أقدم حضارة في التاريخ ، ونشوء أكبر امة ظلت أعمالها خالدة فوق صفحاته حتى يومنا هذا . وقد بقيت هذه الحضارة مركز اشعاع وازدهار ، ومجال تأثر لكثير من الحضارات التي ظهرت في أطراف العالم في تلك الفترة ، فالجزيرة هي موطن الأقوام الاولى ، وهي المستودع الثرّ الذي زود البشرية بهذه الهجرات لتنتشر فوق أصقاعها وتملأ الارض عدلا ونوراً ، وتحرر الانسان من الجور وتضعه في الموضع المؤهل له ..

ومن الطبيعي ان هذا الانسان قد فكر في ايجاد الوسيلة التي يستطيع بواسطتها أن يعبر عن ذاته ، لأنه كان يشعر بحاجة شديدة الى تسجيل أعماله ، وتدوين احتياجاته ، ليستطيع الرجوع اليها عند التذكر ، والوقوف عليها عند المعاودة ، والانتفاع من أسبابها عند اللحظات الحرجة التي تدفعه الى الرجوع اليها ؛ ومثل ما كانت حاجاته الذاتية أو الآنية تدفعه الى الشعور بأهمية الكتابة فان أسباباً اخرى كانت تختفي وراء هذه العوامل ، وربما كانت في بعض الاحيان أشدّ تأثيراً وأبلغ وقعاً في نفسه فالاحداث التي تمر به أو تمر بها والمشاعر التي تنتابه عند نزوع نفسه وما يثيرها أو يشعرها بهذا النزوع بسبب الرغبة أو الرهبة ، والتأثر الوجداني الذي يعتمل فيها ، والانفعالات الحسية التي تحفز تطلعاته ، وتثير في دواخلها هواجس الاعجاب أو الانبهار ، وحاجاته الاجتماعية التي تشد بينه وبين الآخرين الذين يرتبط بهم أو يرتبطون به .. هذه العوامل كانت تأخذ مجالها في كل تحرك ، وتعمل في تفكيره كلما اتسعت آفاق هذا التفكير ، وازدادت أبعاد مداركه ، وتقدمت وسائل حياته البسيطة ، ولابد أن تكون المراحل الاولى للكتابة قبل الصورية ، مراحل أولية اعتمدت الخط أو الاشارة أو النقطة أو الحركة أو شيئاً غير هذه ولكنه يمثل جزءً من الكتابة الصورية التي استخدمها في المراحل التي أعقبت هذه المرحلة . وقد شغلت تلك المرحلة حقبة من الزمن حددت مجال حاجاته ، واستطاعت ان تلبي هذه

الحاجات ، وتحقق له بعض الرغبات ، وتعيد اليه بعض الاطمئنان النفسي الذي ظل يلازمه فترة من الزمن قبل الاهتداء الى هذه الاجزاء المتناثرة والتي استطاع من خلالها أن يحدد مرحلة الكتابة الصورية التي كانت مرحلة متقدمة ، وقفزة من قفزات التطور البشري ، وانتقالا الى مرحلة النضج والاكتمال قياساً الى العصور التي سبقت هذا العصر .. فاستخدام الصور مقام الالفاظ . واعتبار الاشكال دلالات معنوية ، والتعبير عن الذات بالرسم حقق لهذا الانسان اكتمالا من حيث الاهتداء الى الوسائل الحيوية ، ومكنه من الوصول الى حاجاته بشكل أسرع ، وبطريق أقرب ، كما جعل الآخرين من أبناء قومه قادرين على معرفة دواخل نفسه ، ونزعات تفكيره ، وقد ولد ذلك ضرباً من الوحدة في التفكير ، وجانباً من الاحساس بالتماسك وانتقالا من مرحلة التبعثر الى مرحلة التجمع لأن أسباب التفاهم أصبحت مقاربة ، ودلالات الاشكال متفقة ، واحجام التعبير واضحة .

ان سعي الانسان المستمر نحو الصيغة الفضلى ، ومحاولته الوصول الى الهدف الذي يحقق له الحياة الكريمة ، وطموحه الذي لا يقف عند حد ، لم يَحُلْ دون التفتيش عن اسلوب آخر أكثر قدرة ، وأوضح اسلوباً من الطريقة الصورية للكتابة ، لأنه كان يشعر بانها طريقة غير قادرة على الافصاح ، وعاجزة عن التعبير عن المكنون الذي يريد أن ينقله الى عالم التفاهم ، وقد ظلت هذه الرغبة قوية في نفسه ، مؤثرة في سلوكه ، تتلمس لها مجالا وتشق لنزعتها طريقاً ولتأخذ صورة جديدة تتناسب مع حاجاته التي استحدثها ، وطبيعة حياته التي تعود عليها ، وأساليب ادراكه العقلي وكان عليه أن يختار الطريقة التي تختصر الصورة وتوجز رسم الاشكال التي كانت تستغرق وقتاً في الكتابة ، واعتناءً بالدقائق ، ومتابعة لتحديد الاشكال ولم تبتعد عن ذهنه الصورة الدلالية للكلمة والجرس اللفظي الذي تحمله تلك الدلالات والمضمون الحسي والمعنوي الذي تتضمنه اللفظة أو تؤديه الكلمة ، مع مراعاة الجانب الاختزالي الذي

يراعي الوقت ، ويختصر المسافة الحجمية ، وقد اهتدى بعد تجارب رافقها الاخفاق حيناً والنجاح حيناً آخر الى طريقة الكتابة المقطعة التي اختزلت الصورة ، وضيقت المجال الحجمي لها ، ووزعتها الى مقاطع ، وقد اعتمد القسم الاول من كل مقطع دليلا على الاسم الاصلي ، وقد هيأ له هذا التطور الوصول الى عملية تحليل الاسم الى مقاطع وتجزئة اللفظة الى وحدات صوتية ، كما كلفه ذلك من تدوين الكلمات من خلال مقاطعها وتركيب الجمل من تجميع أجزائها ، وهي مرحلة مهدت للانسان كتابة الفقرات الطويلة التي يستطيع أن يعبر بها عن فكره ، وينقل الى الآخرين آراءه .

وهي أشكال لم تقتصر على الجانب الحسي أو المادي وانما تجاوزت ذلك الى التعبير عن الاحساس والمشاعر والهواجس والانفعالات التي ظل عاجزاً عن التعبير عنها . ومسألة كانت تأخذ جانباً من تفكيره ، لأن القدرة على استيعاب الصور الكثيرة ، أو اقتران الرموز التي تشكل مفردات الاشكال المادية المحسوسة . كانت تضع أمامه عقبات غير محدودة ، وتضطره الى حفظ تلك الاعداد حتى يكون قادراً على استخدامها ، ومهيئاً لوضعها في المواضع المناسبة ، وهي عملية كانت تستغرق منه جهداً غير محصور . ولابد أن تتبادر الى ذهنه محاولة اخرى كانت أقرب الى المحاولة الاخيرة التي اعتمدت التحليل والتجزئة ، ولكنها لم تنتبه الى المقطع وانما انتهت الى الجذر الاساسي المتمثل بالحرف وهنا استطاع هذا الانسان أن يضع يده على البدايات الاولى لنشوء الكتابة والاستخدام الحقيقي لوضع الجمل المعتمدة على الحرف ، والمعبرة عن الرأي والمولدة من الألفاظ .

ان التطور الذي صاحب عملية الكتابة ، لم تختص به امة دون اخرى وانما هو تطور فرضته طبيعة البشر وأملاه عليهم التفكير الاول الذي حاول ايجاد الوسيلة القادرة على تسجيل العمل والتعبير عن الفكر وتدوين المسائل التي يحتاجها في حياته وتوثق صلته بأبناء مجتمعه . وكانت مستويات كل مرحلة

تتفق مع التطور العقلي ومستوى الادراك الذهني الذي وصل اليه من خلال مسيرته الفكرية والحضارية ...

ولم تكن الكتابة بعد هذا غريبة عن العرب في جزيرتهم فقد عرفوها قبل الميلاد ببضع مئات من السنين وقد عثر في مواضع من جزيرة العرب على كتابات دونت باليونانية . وبلغات اخرى ، وتبين من دراسة النصوص الجاهلية ، ان العرب كانوا يدونون قبل الاسلام بقلم ظهر في اليمن بصورة خاصة هو القلم الذي أطلق عليه أهل الاخبار (القلم المسند) أو قلم حمير[1] .

ثم اتضح انهم استخدموا القلم النبطي ، وان عرب العراق وعرب الشام كانوا يكتبون امورهم بالآرامية وبالنبطية لشيوع هذين القلمين بين الناس[2] .

فالكتابة العربية وليدة الكتابة النبطية ، والنبط عرب سكنوا أعالي الحجاز الى مكة ، وكانوا يستخدمون هذا القلم (النبطي) وقد استطاعوا أن يطوروه بحيث يستوعب متطلبات العصر من سهولة وسرعة واختصار وهذا ما جعله مقبولا ومستساغاً ، يستعمله التاجر في عقوده والكاتب في مواثيقه ورجل الفكر في التعبير عن فكره . وقد وصلت منه نماذج كثيرة ومنها الكتابات الخمسة التي اعتبرها العلماء النموذج الاول والاقدم للكتابات المدونة بلغة قوم يتكلمون العربية[3] ، وقد أخذت هذه الكتابة تتطور تطوراً سريعاً . بعد أن بدأت معالم نبطيتها بالزوال ، وأخذت تكتسب الصيغة العربية في القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، وفي القرنين الخامس والسادس من الميلاد أمحت الكتابة النبطية وزالت تماماً ، ولكنها بعثت بصورة اخرى . هي الكتابة العربية[4] .

ان هذا الرأي يمثل رأي جمهرة المستشرقين الذين عُنوا بدراسة تطور

---

(١) جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٥٢/٨ .
(٢) جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١٥٣/٨ .
(٣) ن.م ١٦٨/٨ .
(٤) حسين نصار . نشأة الكتابة الفنية/١٩ .

الخطوط السامية ومنشأ الخطوط العربية ، وقد أكدوا هذه الحقائق من خلال الأدلة التي عثروا عليها ، وهو رأي مطابق لحقيقة المسائل ومؤتلف مع الوقائع المؤكدة[٥] . ولعل الكتابة التي عثر عليها في موضع (ام الجمال) وقيل لها كتابة (ام الجمال الثانية) تفريقاً لها عن كتابة ام الجمال الاولى ، أحدث ما عثر عليه من كتابات بهذا القلم وباللهجة النبطية المتأثرة بلهجة القرآن ، أو باللهجة العربية الشمالية القريبة من لهجة القرآن ، وهي لا تحمل تاريخاً غير ان من عالج أمرها من المستشرقين يرى انها تعود الى القرن السادس للميلاد ، ولغتها قريبة من اللغة العربية المعروفة ، كما انها متحررة من النبطية والارامية الى حد كبير[٦] وهذا يعني ان الخط العربي ابن الجزيرة العربية ، ولد فيها ، ونشأ في مدنها الشمالية (الحجاز) ، وازدهر في ربوع قدراتها التجارية التي كانت سبباً من أسباب استخدامه ، ووجهاً من وجوه انتشاره وشيوعه فالتجارة كانت قوام حياتهم ، ومورد رزقهم ، وسبب صلتهم بغيرهم من الاقوام ، وقد أكدت كل الادلة التي عثر عليها ، والنقوش التي قرئت أن الصلات التجارية بين عرب الحجاز والنبط كانت قائمة منذ نشوء دولتهم على حدود الشام وان صلات اخرى سياسية وحضارية كانت قائمة بينهما تأخذ أشكالها وتتحدد أطرافها . وان الكتابات القديمة التي عثر عليها في (ام الجمال) في جنوب حوران تؤكد هذه الحقائق وتوثق الاتجاه الذي تذهب هذا المذهب[٦٧] .

لقد عبر عرب الجاهلية بنشاطهم التجاري ، وقدراتهم المتواصلة في الاستمرار والمتابعة والمعاملة عن تمرسهم وعراقتهم في هذه الصنعة ، وقد نالت حرفة التجارة مكانة مرموقة عند العرب ، فنظروا اليها

---

(٥) جواد علي . المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٨/١٧٤-١٧٥ .

(٦) جواد علي ن.م ٨/١٧٨ .

(٦٧) خليل يحيى نامي . أصل الخط العربي وتطوره الى ما قبل الاسلام . مجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) مايو ١٩٣٥ . وجواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٨/١٧٥-١٧٦ وما بعدها .

نظرة كريمة ، وفضلوها على كثير من الحرف ، وقدموها في المراتب والمقادير على الرغم من نظرتهم المعروفة الى بعض الحرف ، وموقفهم من أصحابها ،وقد لازم هذا الاحترام هذه المهنة في العصر الاسلامي ، فكثرت بشأنها الاحاديث ، وتعددت أشكال الاعتزاز ، وحُدّدت أوجه البيع والشراء ، بعد أن وضعت ضوابط الربح ، وقد حفلت العربية بألفاظ التجارة ومصطلحاتها ، وتعددت مترادفاتها ومن الطبيعي أن تدل هذه الوفرة في الالفاظ المستعملة والمفردات المتداولة في البيع والشراء والتعامل على طبيعة الوضع الاقتصادي ، وانتشار الحرفة وشهرة القوم بها وقدرتهم على التعامل بواسطتها وحذقهم بأساليبها وفنونها وطرقها ووسائل النجاح ومرونة المقايضة وكل ما يتعلق بها من امور وتؤكد معظم الدراسات التي احتوتها كتب الاخبار والادب والسير والتفاسير والحديث والشعر ، أن أهل مكة كانوا يتميزون بخبرة كبيرة في مجال التجارة ، وتعامل واسع مع العالم المعروف في تلك الفترة ، وقد استطاعوا أن يضعوا قواعد ثابتة في طرق التعامل التجاري مع تلك الدول ، فكانت لهم خبراتهم في زيادة الثروة ، وأساليبهم في المراسلات ، وطرقهم في الاستيراد والتصدير ، واقامة الاسواق في الايام المحددة أو المواسم المعروفة ، ومن الطبيعي أن تتوافر شروط البيع في مثل هذا المجتمع من شهود يشهدون على صحة المعاملة وكتبة يكتبون شروط البيع بكتاب حتى لا يُداخل البيع شك أو يعتريه الاختلاف أو ينكث أحد المتبايعين بالعهد فيلحق بالآخر الضرر ، لأن الكتاب تمثل حجة على البيع ، وشاهداً على المتفقين وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك اشارة صريحة في قوله تعالى « واشهدُوا اذا تبايعتم ولا يُضارّ كاتب ولا شهيد »[٧] ب .

فالآية الكريمة صريحة أكدت الحقيقة الشائعة ، وحددت وجود الشاهد ، وأمرت بوجوب ذلك في حالة المبايعة ، لأنه أوثق وآمن من النسيان ، وأبعد من الجحود . ومما يقع من الاختلاف وكما كانت طرق البيع تتم

---

(٧) ب : البقرة ٢٨٢ .

عن طريق الافراد بالبيع المباشر أو عقد الصفقة التي تتم بين البائع والمشتري فان هناك طرقاً اخرى في البيع تتم عن طريق البيع بالمساهمة أو الشركة ، وقد جرت العادة في مكة أن يشترك أهلها في مال أو تجارة يرسلونها الى اليمن أو الى بلاد الشام وانهم يتكاتبون فيما بينهم ، ويثبتون ما اتفقوا عليه في صحيفة تخط نسخ منها وتحفظ عند الشركاء وكانوا يوكلون الوكلاء عنهم في اجراء العقود والتوقيع على العهود وعلى شروط السلم • اذا كانوا مخولين ، كما كانوا يكتبون الدين ورباه في صحيفة يثبت فيها اسم المدين واقراره بالدين واسم الكاتب ، وقد أشار القرآن الكريم الى ذلك(٨) •

ان هذه الاشارات الواضحة التي عرفتها الحياة العربية تؤكد ان الكتابة كانت موجودة ومتداولة الى جانب الاشكال الاخرى التي كانت تستخدم فيها بشكل واضح ومعروف كالاحلاف والمواثيق والعهود والرسائل وشواهد القبور وعقود الاسرى ومكاتبات العبيد والخطب وغير ذلك من امور الحياة ، وهي امور تؤكد انتشارها وتحدد مواطن استخدامها وترسم المجالات التي كانت تتوفر فيها ، وهي مجالات لا يمكن أن تكون واسعة بالشكل الذي يعطيها بعداً واسعاً أو دائرة كبيرة • وانما كانت تستخدم في الحدود المتحركة والدوائر التي ترى ضرورة لاستخدامها من أجل المحافظة على الضوابط الاجتماعية ، وتنظيم امور الحياة ، وتأمين الحقوق التي تكفل للآخرين سلامة الحياة ، ومراعاة الواقع الحياتي والنفسي لكل الفئات في اطار المجتمع العربي آنذاك •• وهذه الحقيقة ظلت شاهدة على ذيوع مسألة الكتاب باعتبارها عنصراً من عناصر الحضارة ، وعلامة من علامات الاستقرار ، وقدرة من قدرات الامة التي استطاعت أن توثق علاقاتها مع أطراف مختلفة من جهة ، وأطراف متباعدة من جهة اخرى ، وقد

---

(٨) البقرة/٢٨٢ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتهم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه •••) •

استطاعت هذه الامة ان تضع المقاييس الاجتماعية والاقتصادية لذلك المجمع من خلال التعامل اليومي والاتفاقات الثنائية أو الجماعية لتسيير امور ذلك المجتمع ومحاولة جعله مجتمعاً قادراً على النهوض الى المستوى المرموق • ومن الطبيعي أن يكون الاقبال على تعلمها اقبالا محدوداً ، أو الانصراف اليها والوقوف على أساليبها مقتصراً على فئة دون فئة ، لأن المعاملات كانت محصورة في مراكز المدن وفي نطاق الفئة التي تمتلك زمام النظام ولدى أصحاب المواقع التجارية أو الادارية الذين يشغلون المراكز الاساسية في طبيعة ذلك النظام ولكن هذا لم يحل دون وجود مكاتب لتعليمها ، أو مراكز لتخريج من يقوم بهذه المهمات وان هذه المراكز كانت تشق طريقها في مواقع مختلفة وان الذين كانوا يقومون بالتعليم كانوا يطوفون الأماكن ويؤدون رسالتهم بالشكل الذي يحقق لهم المهمة التعليمية سواءا كان ذلك داخل المدن أم خارجها وان هذه المكاتب أو المراكز كانت لها أساليبها في التعليم ، وطرقها في التدريس • ولها مدرسون أو معلمون أو كتاب متخصصون ، مارسوا مهنتهم ، وعرفوا الاشكال التي تعاونهم في ايصال الطريقة الى اولئك المتعلمين ، وهي طرق ظلت آثارها واضحة في طريقة التعليم التي وصلت الينا في العصر الاسلامي أو قبل العصر الاسلامي •

واذا كانت التجارة وطرقها وأساليبها قد فرضت على الناس استخدام الكتابة ، وأجبرت بعضهم على تعلمها ، وحددت عليهم استخدامها من أجل وضع الضوابط العامة لتنظيم الحياة الاقتصادية فان الشعر العربي قد حفظ ذخيرة من الاشارات التي تكشف عن دقائق موضوع الكتابة والنقوش والاشكال والحروف والوسائل المستخدمة فيها ، وان الشعراء قد تفننوا في ذلك ، ووقفوا عند مسائل كثيرة تؤكد المعرفة الشاملة وتهيء الاذهان للصورة التي كانت عليها ، وتعاون على تحديد بعض المجالات التي كانت تستخدمها ••

وأغلب الشواهد الشعرية التي يأتي بها ذكر الكتابة تنحصر في حديثهم

عن الاطلال ، ووقوفهم عندها ، وخاصة عندما لا يجد الشاعر شيئاً يناجيه غير المعالم الضئيلة من الطلل التي يصعب عليه حمله ، وقد ظل الزمن يجدُّ في ازالتها ، والأحجار الصماء التي طال عليها الدهر ، والاثاني السفع المحترقة التي اختلفت عليها الخطوب والاحداث والدمن المتبقية • وكان الشعراء حريصين على تشبيهها بأشكال مختلفة ، فشبهوها بالكتاب في الخفاء والدقة ، لأن الآثار تدل على مواضع الديار وتُبيِّنها ، كما يدل الكتاب على المعنى المراد ، ويعبر عنه مع دقته وصِغر حروفه ، وهي اشارات تكشف عن صورة الكتاب ، وشكل الحروف وطبيعة التشبيه بين الكتاب والاثر كما قال امرؤ القيس[٩] •

قفا نبك من ذكرى حبيب وعرفان ورسم عفت آياته منذ ازمان
أتت حجج بعدي عليها فأصبحت كخط زبور في مصاحف رهبان

فالزبور والخط والمصاحف كلها كانت معروفة ، وكلها كانت متداولة ، وان وجودها ومعرفة الشعراء بها كانت تؤشر الحالات الثقافية ، والواقع التعليمي الذي كان معروفا في تلك الفترة ، ولم تقف معرفتهم عند حدود الكتاب وانما تجاوزت ذلك الى عنوان الكتاب وخاصة المجدد • وهي اشارات اخرى تؤكد ان الشعراء كانوا على معرفة بواقع الكتاب وعنوانه كما قال ابو دؤاد الايادي[١٠] :

لمن طلل كعنوان الكتاب ببطن لواق أو بطن الذهاب

وقال عبيد[١١] :

لمن دمنة أقوت بجوة ضرعد تلوح كعنوان الكتاب المجدد

ثم يشبه الديار بالكتاب في استوائه[١٢] :

---

(٩) امرؤ القيس • الديوان/٨٩ ، ٨٥ •
(١٠) أبو دؤاد الايادي • الديوان/٢٩٣ •
(١١) عبيد بن الابرص • الديوان/١٥٢ •
(١٢) عبيد بن الابرص • الديوان/٢١ ، ٦٧ ، ١٣٠ وينظر ديوان زهير/١٢٦ ، ١٤٦ ، ٢٦٨ وديوان لبيد/٢٩٧ •

لمن الدار اقفرت بالجنـاب غير نؤي ودمنة كالكتـاب

اما تشبيه آثار الديار بالصحف فهو معنى متداول بين الشعراء قال بشر بن ابي خازم[١٣] :

كأنها بعد عهد العاهدين بهـا بين الذنوب وحرمي واحف صحف

وقال عنترة[١٤] :

كوحي صحائف من عهـد كسرى فأهداهـا لا عجـم طنطـمي

وحاول بعض الشعراء الا يقفوا عند الاثر الذي تركه الأحبة ، وانما عمدوا الى ما بقى من الاثر فشبهوه بآثار الكتابة على الاحجار محاولين عقد المقارنة بين هاتين الصورتين اللتين ارتسمتا في اذهانهم . يقول عبيد[١٥] :

لمن الديـار بصاحـة فحـروس درسـت من الاقفـا رائي دروس

الا أوارياً كـأن رسـومها في مهـرق خلـق الدواة لبيس

ويشبه زهير رسوم الدار برق مكتوب ، قد اتى عليه الدهر فاذهب معالمه فيقول[١٦] :

آمن آل ليـلى عـرفت الطلـولا بـذي حُرُض ماثلات مُثـولا

بلـين وتحسـب آياتهـن عن فرط حولين رقـاً مُحيـلا

وتستدق الصورة عند بعض الشعراء فتأخذ شـكلا اكثر دقـة ، واوضح

---

(١٣) بشر . الديوان/١٣٧ وينظر كتاب الاختيارين للاخفش/٢٠٨ .
(١٤) عنترة . الديوان/٣٩٤ (مختار الشعر الجاهلي) وينظر ثعلبة بن عمرو العبدي/المفضليات ٢/٨١ .
(١٥) عبيد : الديوان/٦٧ .
(١٦) زهير . الديوان/١٩٣-١٩٤ .

تنميقاً . وتبدو صورة الكاتب وهو مكب على كتابته بدواته فيقول سلامة بن جندل[١٧] :

لمن طلل مثل الكتاب المنمق خلا عهده بين الصليب فمطرق
اكب عليه كاتب بدوانه وحادثه في العين جدة مهرق

ويشبه بشر بن ابي خازم ما بقى من آثار الديار بالالواح المزخرفة فيقول[١٨] :

فكأن أطلالا وباقي دمنة بجدود الواح عليها الزخرف

ويقف المرار بن منقذ عند استدارة حرف (اللام) فيشبه به الرسوم العافية ، وهي وقفة تكشف عن شيوع معرفة الحروف وصورها واشكالها واستخدامها ، فيقول[١٩] :

وترى منها رسوماً قد عفت مثل خط اللام في وحي الزبر

كما وقف ابو دؤاد عند حرف النون[٢٠] :

ان هذه النماذج والاشارات التي وقف عندها الشعراء الجاهليون تمثل امتداد الصورة الكتابية التي عرفوها ، والمتابعة الحسية التي كانت تأخذ مجالها من خلال التشبيهات ، وان محاولة عقد المقارنات وتحديد الاشكال التي كان يتشكل بها الطلل ، وتظهر بها آثاره وما يقابلها من الكتاب أو الكتابة والصحف والحروف والزخرفة والنقوش والتنميق واحسان الصنعة تؤكد ان هذه المصطلحات كانت معروفة ، وان هذه المفردات كانت تمثل وجوداً مدركاً ، وتصور واقعاً تعليمياً له مجالاته في الميدان الثقافي ، وانه لم يقتصر على منطقة واحدة ، أو مدنية بعينها .

---

(١٧) سلامة بن جندل/الديوان/١٥٥-١٥٦ .
(١٨) بشر . الديوان/١٥٢ .
(١٩) المفضل . المفضليات ١/٨٧ .
(٢٠) أبو دؤاد الايادي . الديوان/٦٨ نقلا عن اللسان/١١٢ .

وانما كانت الجزيرة العربية بكل اطرافها ميدانا لهذه المعـــارف ، ودائرة لتلك المسميات • فالشعراء الذين وقفوا عندها لم يمثلوا منطقة واحدة أو مكانا محصورا وانما هم شعراء العرب من مختلف اصقاعها ، ومن مختلف قبائلها ، وانهم كانوا يسكنون اجزاء متباعدة ، وربما كانوا بعيدين حتى عن مراكز المدن ، أو اماكن التحضر ، ولو حاولنا استقصاء الاشارات ، ومتابعة المفردات التي استخدموها في هذا المجال لجمعنا حصيلة كبـــيرة من الالفـــاظ التي استخدموها والصور التي اشاروا اليها ، والمعاني التي ذكروها وهي الفاظ ودلالات قادرة على رسم الصورة الثقافية والحضارية للمجتمع الغربي قبل الاسلام ، وان هـــذه الدلالات توحي بعمق الزمن ، وبعد المسافة التي قطعتها المسيرة الثقافية حتى استكملت عناصرها ، وتوحدت اشكالها ، واخذت حجمها • ولعل الصورة التي يقدمها القرآن الكريم من خلال تناوله للفعل كتب ومشتقاته التي بلغت حوالي ثلاثمائة وعشرين اشارة تكشف عن الصورة الكبيرة التي كان المجتمع يعيشها ، والوضـع التعليمي الذي يسود ذلك المجتمع ، ويضع المؤشرات الثابتة في حركة التعليم والتعلم والكتابة • كما ان تعدد الصيغ في استخدام الفعل ، واتساع الدائرة التي يتحرك في اطارهـا الفعل بكل اشكاله ، وتعميم هذا الاستعمال وشـــموله ، تحقق الصورة الكبيرة وتعطي المؤشر الواضح في الحالة العلمية التي كانت تتجاوب اطراف الجزيرة • وتمتد اصواتها لتشمل المناطق المحيطـة بها من جميع اطرافها ، ليصبح المتعلمون قادرين على ممارسة نشاطهم من خلال الاعمال التي اتجهوا اليها أو المواهب الادبية التي عبروا عنها •

فالباحث بعد كل هذا يستطيع ان يتأكد من ان الكتابة كانت معروفة ، وان شيوعها في اوساط متباينة اصبح حقيقة واضحة وانتشارها في اماكن متباعدة يشكل اساساً من الحركة الحضارية التي كانت تملأ كل مكان وتتوزع في كل جانب ، واذا قُدر للنصوص الآثارية ان تتحدد في مواقع ، أو تقتصر على بعض الشواهد ، أو تنقل بعض الكتابات المحدودة فان ذلك لا يعني ان هذه الامة ظلت بعيدة عن

استخدام الكتابة ، ولا يعني ان الكتابة التي استخدمتها كانت تمتد الى الحدود التي اكتشفت فيها تلك الآثار ، فالحقيقة العلمية التي تطالع الباحث وهو يجد هذا الاستخدام لمشتقات الكتابة ويتابع المفردات الكثيرة ، ويقف على الطريقة التي كانت تستخدم بها ، والاستعمالات التي شملت كل اطراف الحياة والصورة التي كان يتم فيها تبادل الوثائق أو الصكوك أو المواثيق أو الرسائل وما يبنى عليها ، أو يتحقق من خلالها ، تؤكد ان عمر الكتابة يمتد الى مرحلة موغلة في القدم ، وتستغرق في الزمن حدوداً قد تكون اضعاف الزمن المحدد من خلال النصوص التي عثر عليها ، أو الآراء التي قيلت بشأنها ، فالحدود الزمنية تنبثق من الحدود المعقولة التي ينم عنها استعمال اللفظ ، والابعاد المعقولة التي توحي بالعمر الزماني لا يمكن ان تظل محصورة في نطاق النص وحده ، دون مراعاة العمر التكويني لاستخدامها وتطور هذا العمر والمراحل التي قطعها حتى استوى مصطلحاً ثابتاً ، ومعنى متفقاً عليه ، وصورة تقبل بها كل الجهات ويرتضى باستخدامها المجتمع بكل طبقاته ، ان هذه الحقائق يجب ان تظل واضحة في اية دراسة يمكن تطبيقها على عمر الكتابة ، ويجب ان تأخذ شكلها واطارها في أية محاولة ترقي الى وضع التاريخ المناسب لعمرها لقد اكدت الوثائق والاخبار ان الكتب الدينية كانت معروفة ومتداولة ، وانها لم تكن مقتصرة على رجال الدين من اليهود والنصارى ، وانما كانت كثيرة يتداولها الناس ، فيقفون على قصصها وتعاليمها ، ويلتزمون ببعض اخبارها ، ويعيدون على الآخرين ما يجدونه فيها[٢١] ، وان العهود والاحلاف والمواثيق كانت منتشرة لانها تعد من اسباب تنظيمهم ، ودواعي ارتباطهم وقد اشار الجاحظ الى ذلك[٢٢] ، وان معرفتهم بالصكوك التي تثبت فيها حساباتهم وتجارتهم وحقوقهم تشكل جانبا آخر من جوانب الموضوعات التي كانت تستخدم فيها

---

(٢١) ينظر المقريزي امتاع الاسماع/٣٢٣ ، والاغاني دار الكتب ١٢٠/٣ والزمخشري في الفائق ٢٠٦/١ وابن هشام ٠ السيرة ٦٨/٢ ٠

(٢٢) الجاحظ ٠ الحيوان ٦٩/١-٧٠ وينظر مصادر الشعر الجاهلي ٦٥-٦٧ ٠

الكتابة الى جانب الرسائل التي يتبادلها الافراد ، وما تحتويه من شؤون ، وتعالجه من مسائل ، وتتعرض له من احداث وكتب الرقيق التي تحدد المال الذي يُعتق بموجبه الرقيق ليصبح حراً[٢٣] .

ان هذه المجالات كانت تشمل الابعاد التي كانت الكتابة تستخدم فيها ولابد ان تكون هناك مسائل اخرى ، ومواضع مختلفة كان الناس يستعملون فيها الكتابة ولكنها لم تكن بهذا الشيوع أو الاهمية لانها تأخذ الجانب الفردي او الذاتي او الضيق ، ولعل البحث الدقيق عن جوانب الحياة سوف يُعطي تلك المجالات القدرة على استكمال الصورة ، وايضاح المواضع التي لم تهيء الفرصة لمعرفتها ،

ومن اجل ان تتكامل كل الاطراف المتشابكة في هذا المجال وجدت من المناسب ان اقف عند الادوات التي استخدمها العرب في كتاباتهم والمتضمنة المواد التي كانوا يكتبون بها أو عليها ، لتصبح الصورة الثقافية متكاملة ، والواقع التعليمي واضحاً ، وليقف الباحث على الامكانات التعليمية أو الحضارية التي كانت تسود الجزيرة ، حتى اصبحت مركزاً من مراكز القدرة الفكرية ، ومنطلقاً من منطلقات الحضارة .. وان هذه المواد التي استخدموها في كتاباتهم كانت تمثل الصفحات اليومية أو التأريخية لطبيعة حياتهم ولابد ان تكون هذه الوسائل قادرةعلى البقاء ، وقادرة على التعبير عن الاشكال الحية التي كانت تتعاون في خلق معطيات تلك الحياة .

ان اشارات الشعراء الى الرق المحيل ، أو الذي تقادم عهده ، يؤكد ان الشعراء قد وقفوا على نماذج من هذه الرقوق ، وأطلعوا عليها ، وتأملوا فيها وادركوا انها لم تكن جديدة أو قريبة عهد ، وان حروفها التي كتب بها لم تكن غريبة عليهم ، أو بعيدة عن تصورهم ، وانما هي الحروف التي كانوا يستخدمونها،

---

(٢٣) ابن سعد . الطبقات ٥/٦٢ ، ٧/٨٧ .

والاشكال التي كانت تكتب بها ؛ ولعل ابيات زهير التي اشرنا اليها سابقاً والتي يقول فيها[٢٤] .

أمن آل ليلى عـــرفت الطلـــولا بذي حُرض ماثـــلات مثـــولا
بلـــين وتحســـب آياتهـــن عن فرط حولـين رقاً محيـــلا

تؤكد رؤية الشاعر للرق الذي تقادم عهده ومثلـــه قول ثعلبـة بن عمرو العبـدي[٢٥] :

لمن دمن كأنهـــن صحـــائف قفار خلا منهـــا الكثيب فواحف
فما احدثت فيهـا العهـــود كأنما تلعب بالســـمان فيهـــا الزخارف

ويذهب الشـعراء الى صورة اكثر دقة ، فيذكرون الطريقـــة التي كان يستخدمها الكاتب وهو مكب على دواته ، وقد استخدم يديـــه في الكتابة يُقيم الحرف مرة ويخالفه مرة أخرى ، محاولا بذلك كتابة الصحيح أو الوقوف على الشكل المناسب[٢٦] .

اكب عليهـــا كاتب بدواتـــه يُقيمُ يديـــه تـــارة ويخالف

ويقول سلامة بن جندل[٢٧] :

اكب عليـــه كاتب بدواتـــه وحادثه في العين حـــدة مهـرق

ان هذه الاشارات والتأكيدات والصور التي قدمهـــا الشعر العربي تضع الوثائق الحقيقية بين ايدي الدارسين لاعادة النظر في مسألة الكتابة واستخداماتها والاصول القديمة لها والعمق الزمني الذي اخذته في حياة العرب حتى استقامت اصلا من الاصول ، وشكلا من الاشكال الثابتة في بناء الحاضرة وتقويم اعمـــدة الصرح الثقافي ومثل ما أكدت معرفة العرب بالكتابة من خلال تشبيهات الشعراء

---

(٢٤) زهير بن ابي سلمى/الديوان ١٩٣-١٩٤ .
(٢٥) المفضل . المفضليات ٢/٨١ .
(٢٦) نفس المصدر ٢/٨١ .
(٢٧) سلامة بن جندل . الديوان ١٥٥-١٥٦ .

واستخداماتهم لاشكالها وذكر العنوانات والحروف فان الادوات التي عرضوا لها والوسائل التي استعملوها وأشاروا اليها توحي بالمعرفة الدقيقة لكل شكل من أشكالها ، فالجلد نموذج من نماذج الأدوات التي استخدموها ، وصورة من الصور التي وجدوا في استخدامها وسيلة من الوسائل ، وفي الاصناف التي استعملوها منه دلالة على الاعتماد الكبير الذي شغلته هذه المادة في حياتهم فكان الرَّق جلداً يُسوّى ويُرقق ليكتبَ عليه . وهذا يوجبُ وجودَ صناعة لها صُناعها المعروفون ، وطرُقُها المخصصة ووسائلها التي يُصبح بها هذا الجلد صالحاً للكتابة ، موافقاً للصفات المطلوبة ، ومُحققاً للغاية التي كانوا يتوخونها من الكتابة وقد وقف الشعراء عند هذا الصنف من أصناف الكتابة وقفات كثيرة ذكروا فيها استخدام السطور والزينة التي تزيّن بها كما قال طرفة[٢٨] :

كسُطُور الرّقّ رَقَّشَهُ بالضُّحَى مُرَقِّشٌ يَشِمُهُ

وأشار اليه معقل بن خويلد الهذلي[٢٩] :

وانيَ كما قالَ مملي الكتا ب في الرَّق إذْ خطَّه الكاتبُ

ويجمع الأخنس بن شهاب التغلبي بين الكتاب والعنوان والكاتب والرق في بيت واحد فيقول[٣٠] :

لابنة حَطّان بن عوف منازلٌ كما رقَّشَ العنوانَ في الرَّق كاتبُ

ويؤكد المتلمس تقادم عهد الرّق فيقول في وصف الصحيفة[٣١] .

فكأنما هي من تقادم عهدها رَقٌ أُتيحَ كتابُها مسطورُ

---

(٢٨) طرفة . الديوان /٦٨ (مكس سلغسون) .
(٢٩) شرح أشعار الهذليين ٣٩٢/١ .
(٣٠) المفضل الضبي . المفضليات ٤/٢ .
(٣١) المتلمس . الديوان/٢٨٧ وينظر ديوان حاتم الطائي/٢٣٣ (تحقيق د. عادل سليمان) .

والى جانب الرق كانت هناك أصناف اخرى من الاديم (الجلد الاحمر المدبوغ) والقضيم (الجلد الابيض الذي يستخدم في الكتابة) والمذهب (الجلد الذي فيه خطوط مذهبة بعضها في أثر بعض)[٣٢] وهي أنواع كانت تستخدم في الكتابة وان اشارة الشعراء الى كل هذه الاصناف يوضح الصورة الكبيرة التي كان الشعراء يتداولونها ويعرفون أجزاءَها ويتناقلون أخبارَها ، ويستخدمونها في التشبيهات التي وجدوا فيها وجهاً للمقارنة ، وصورة للتشبيه •

والى جانب الجلد فقد وردت اشارات اخرى الى الصحيفة وقد أشرنا الى ذلك في الامثلة التي وقفنا عندها ، ويبدو ان استخدام الشعراء للصحيفة كان المقصود منه النقوش والكتابة التي تتضمنها الصحيفة وكثيراً ما نجد الاشارة بعد ذلك تقف عند الزخارف[٣٣] ، ووقف الشعراء عند المهارق وهي ضرب من القماش كانوا يستخدمونه في الكتابة بعد طلائها بشيء ثم صقلها وسقيها بالصمغ • وقد ذكرها الحارث بن حلزة في قوله[٣٤] :

لمن الديارُ عفونَ بالحُبس آياتُها كَمَهارق الفُرسِ

وأشار اليها في معلقته التي أكد فيها ان حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهود والكفلاء قد ثبت في المهارق ، وتلك اشارة واضحة الى استخدامها في مجال المواثيق فيقول[٣٥] :

واذكروا حلفَ ذي المجاز وما قُدّمَ فيه العهود والكفلاءُ

حذر الجور والتعدّي وهل تنقضُ ما في المهارق الاهواءُ

---

(٣٢) بشر بن ابي خازم • الديوان/٣٤ وديوان عبيد/٩٦ وديوان زهير/٢٣١ وديوان النابغة/٤٣ وديوان قيس بن الخطيم/٣٣ •

(٣٣) المفضل الضبي • المفضليات ٢/٨١ وشرح اشعار الهذليين ١/٩٩ ، ٢٥٦ •

(٣٤) المفضل • المفضليات ١/١٣٠ •

(٣٥) الانباري/شرح القصائد السبع الطوال/٤٧٨ وينظر مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصرالدين الاسد/٨١ •

وقد وردت اشارات اخرى الى استخدام المهارق (الصحف)[٣٦] ، ولم يكن العسيبُ بعيداً عن الاستخدام في مجال الكتابة ، فقد ذكره امرؤ القيس[٣٧] :

لمن طلل ابصرته فشجاني كخطّ زبور في عسيب يمان

وتحدث عنه لبيد وهو يصف كاتباً تعوّد اللحن وكان يعيد القلم بكفه ليتلافى ذلك اللحن فيقول :

مُتعوِّدٌ لَحِنٌ يُعيد بكفِّه قلماً على عُسُبٍ ذَبُلْنَ وبانِ

ويشكل الحجر مادة اخرى من مواد الكتابة التي أشار اليها الشعراء ووقف الجاحظ عندها فقال « وكانوا يجعلون الكتاب حفراً في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخِلْقةً مركبة في البنيان ، فربما كان الكتابُ هو الناتيء ، وربما كان الكتاب هو الحفر ، إذا كان تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يُرتجى نفعُها ، أو احياء شرف يريدون تخليد ذكره ، أو تطويل مدته كما كتبوا على قبة غُمْدان وعلى باب القيروان وعلى باب سمرقند وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقرّ وعلى الأبلق الفرد ، وعلى باب الرها ، يعمدون الى الاماكن المشهورة والمواضع المذكورة فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدُثور ، وامنعَها من الدروس وأجدرَ أن يراها من مَرّ بها ، ولا تُنسى على وجه الدهر[٣٨] وقد خصص الجاحظ بعد ذلك باباً لفضل الكتابة وتسجيل المعاهدات والمحالفات والخط والحضارة . وكانت الكتابة والنقش على الحجر يسميان الوحي . وقد ذكر ذلك زهير بن ابي سلمى ثلاث مرات وهو يصف الطلل الدارس[٣٩] ويؤكد في النص الثالث ان الكتابة جعلت في حجر المسيل المخلّد لانه أصلب له .

---

(٣٦) ينظر ديوان سلامة بن جندل/١٣٥ ، ١٥٦ .
(٣٧) امرؤ القيس . الديوان/٨٥ وديوان قيس بن الخطيم/٦٤ .
(٣٨) الجاحظ . الحيوان ١/٦٩ .
(٣٩) زهير بن ابي سلمى/١٢٦ ، ١٤٦ ، ٢٦٨ .

أما المداد والدواة والقلم فقد كثرت اليها الاشارات ، وتعددت الصور ، وهي اشارات توضح الطريقة الفنية في الكتابة ، والالتزام بتحسينها واعادة التعلم عليها لتحبيرها وتنميقها من قبل قاريء بصير يخشى أن تعاب كتابته[٤٠] وذهب بعض الشعراء الى تشبيه ما بقي من مواقد تلك النيران بالكتابة القديمة التي أوشك حبرها أن يمحى وقد كتبت على ورق قديم بال[٤١] .

لقد حاول الشعراء أن يروا الاثر القديم ـ على الرغم من قدمه ، وقد طرزت زخارفه ، وعلا سطوره الوشي ، ونمقت أرضه الرقم الزاهية . ويبدو ان الصورة استحالت في ذهن الشعراء الى واقع آخر ، وبرزت خفاياها بهيئة ملونة ، تلألأت حروفها ، وشعشعت أركانها فكانت كجفن اليماني زخرف الوشي ماثله . أو يمان وشته ربدة وسحول أو رقم ينمق بالاكف يمان ..

ان هذه الاشارات التي اهتدينا اليها من خلال المتابعة تؤكد المعرفة الدقيقة للكتابة ، والملازمة الصادقة التي عرفها العرب وأدركوا أهميتها بالنسبة الى حياتهم ، وان هذا الاهتمام يمتد الى مرحلة تاريخية عميقة ، ويغور في اصلاب الزمن لفترة سحيقة ، وان اتصال الكتابة بجذورها الحقيقية في الجزيرة العربية يحد د الصلة الحضارية لطبيعة الحرف العربي الذي ولد عربياً ونشأ عربياً وظل عربياً . وان كثيراً من الآراء التي قيلت بشأن استعارته من خطوط اخرى سيبقى ضرباً من الحدس ، أو نوعاً من التخمين الذي يحتاج الى الدليل القاطع والبرهان الاكيد ، وسيظل الحرف العربي عربياً حتى وقوف الباحثين على ما ينفي هذه الادلة .

---

(٤٠) المفضل . المفضليات ١٥٨/٢ وينظر شرح اشعار الهذليين ٩٨/١ .
(٤١) عبيد بن الابرص . الديوان/٦٧ .